مظاهر مقاومة الآخر في رواية (الطريق إلى الشمس، الجوزاء) لعبد الكريم ناصيف

الـــــــمـلـــــــخّـــــص

يتناول هذا البحث أشكال مقاومة الآخر كما قدّمتها رواية (الطريق إلى الشمس، الجوزاء)؛ إذ تنوّعت أشكال مقاومة الآخر فيها، ومنها نظرة العداء للآخر، والتي تُمثّل مظهراً من مظاهر المقاومة، و منها المقاومة المُسلّحة، والمقاومة السياسيّة، التي كان لها دورٌ كبيرٌ في توعية الجماهير، والتحذير من الخطر الذي يمثّله الغرب الاستعماري.

الكلمات المفتاحيّة:

- الذات.
- الآخر.
- مقاومة.
- سياسيّة.
- مسلّحة.

مقدمة

يتناول هذا البحث أشكال مقاومة الآخر كما قدّمتها رواية (الطريق إلى الشمس، الجوزاء)، وتكمن أهميّة هذا البحث في تمركزه حول سؤالٍ مهمٍّ يتّصل بالدفاع عن الهوية، والوقوف على تحليل مظاهر مقاومة الآخر في هذه الرواية ؛ إذ تتنوّع أشكال مقاومة الآخر، مثل نظرة العداء، والمقاومة المُسلّحة، والمقاومة السياسيّة، ومن مسوّغات اختيار هذه الرواية: أنّ موضوع العلاقة مع الآخر لم يُدرس فيما نعلم في هذه الرواية، فضلاً عن أنّها صدرت عام 2000، وهذا بدوره يمنح الباحث فرصةً لمساءلتها في علاقتها بالخطاب الثقافي والمقاومة، وتقييم دورها في الحفاظ على الخصوصيّة الثقافية، والدفاع عن الهويّة.

أولاً: مفهوم الذات ومفهوم الآخر:

لا بد قبل الوقوف على أشكال مقاومة الآخر في هذه الرواية، من الوقوف عند مفهوم الذات، ومفهوم الآخر.

1- مفهوم الذات:

الذات هي((ما دلّ على ذاتٍ؛ أي شيء محسوس قائمٌ بنفسه))[1]، وقد اصطُلح عليها بـ(Essence)، وتعني (الماهيّة)؛ أي الأمر الذي ((يمنح الشيء جوهره وحقيقته))[2]، ورأى بعض الفلاسفة العرب، ولاسيّما ابن رشد، وابن سينا أنّها((جوهرٌ قائمٌ بنفسه))[3]؛ لذا فإنّ الذات تشير إلى السمات النفسية والاجتماعية، وإلى العمليات العقلية التي ينطلق منها الفرد في تعامله مع ما يحيط به؛ لذا فإنّها تعني ((مجموعة الآراء والمعتقدات التي يكوّنها الفرد

([1]): وهبة، مجدي، وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص(45).

([2]): صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، ص(579).

([3]): المرجع السابق نفسه، ص(140).

عن ذاته، من خلال وجوده في البيئة التي يعيش فيها))[1]، وتسبق مرحلة الأنا(The Ego) مرحلة الذات (Essence)، فعندما تصل الأنا إلى مرحلة التفكير بالسمات الحضارية والثقافية واللغوية التي تنتمي إليها تنتقل من مرحلة الفردية إلى التفكير بوساطة اللاشعور الجمعي، وبذا يتحدّد الآخر المختلف نظراً لاختلاف لغته وانتمائه الحضاري أو الديني أو القومي...

وحين تدرك الذات اختلافها تشرع في تحديد من يشابهها ومن يختلف عنها، وتقوم تلك العملية على الاختزال من خلال التركيز على بعض السمات، ومن ثمّ تعميمها؛ لتصبح معياراً في تحديد من ينتمي إلى مجتمع الذات ومن لا ينتمي إليه، ووعي الذات لخصوصيّتها يفضي إلى وعيها بالاختلاف عن الآخر[2]. وهذا يعني أنّ مُحدّدات الذات: قوميّة ولغويّة وحضاريّة وثقافية، وكلُّ من لا يحمل تلك السمات يقع خارج انتماء الذات.

2- مفهوم الآخر:

مفهوم الآخر في أوضح صوره مثيلُ الذات ونقيضها، وقد شاع بوصفه مصطلحاً في الدراسات الأدبيّة المقارنة، وفي الاستشراق والخطاب الاستعماري وما بعده[3]، كما أنّه ((مفهومٌ مُزوّدٌ بمعنى يفضي إلى أنّه يعني الكليّة الاجتماعيّة الإيديولوجيّة والحضاريّة المجاورة للذات في الزمان والمكان بمفهومها الواسع))[4]، ولكنّ مفهوم الآخر لا يقتصر على المعنى المُتداول، الذي يعني السمات التي تميز مجموعةً بشريّةً عن غيرها، بل إنّ له إضافةً إلى ذلك ((جانبه التهديدي، والتصنيفي، والإقصائي، والاستبعادي))[5].

([1]): سفر، تامر، الذات والهوية في سيكولوجية الشخصية، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة السورية، العدد(455)، السنة(40)، دمشق، ص(64).

([2]): ينظر: الذويخ، د.سعد فهد، صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي،ص(7).

([3]): ينظر: الرويلي، د.ميجان وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ص(21).

([4]) سليمان، حسين، مضمرات النص والخطاب، دراسة في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي، ص(131).

(5): الشدودي، على، الآخر في الرواية السعودية، طرق للرؤية، ص(245).

ويختلف مفهوم الآخر باختلاف زاوية التعاطي معه، فالآخر بالنسبة إلى علم النفس هو كلُّ ما هو خارج الذات، فضلاً عن أنّه يمثّل موضوعاً للذات؛ لأنّني لا أستطيع أن أكون موضوعاً بالنسبة إلى نفسي، كما أنّ الآخر لا يمكن أن يكون موضوعاً بالنسبة إلى نفسه، فهو يشكّل مرحلةً مهمّةً من مراحل تطوُّر الذات[1]. وقد تباين مفهومه مع الفلسفة الدينيّة، والسياسيّة، والاقتصاديّة، والتاريخيّة، وهذا يعني أنّه مفهومٌ متغيّرٌ ومتطوّرٌ وفقاً لما تقتضيه اللحظة التاريخية المعنية من مواقفَ وأفكارٍ، ولكلٍّ ((مفهومٍ من مفهومات الآخر مُترتّبات، كالصدام مع الآخر" أو التعايش معه، أو التحالف وإقامة شراكةٍ معه. كلُّ ذلك يتوقّف على فهمنا للآخر، أضف إلى ذلك أنّ المفهومات والمصطلحات يجب أن تُحدَّد بدقّةٍ إذا أردنا أن نتفاهم، لا أن يسيء بعضنا فهم البعض الآخر؛ لأنّ في ذهن كلٍّ منّا مفهوماً خاصّاً عن "الآخر"))[2]، فضلاً عن أنّه محكومٌ بالزمان والمكان، فموقف العربي من الآخر الغربي في العصر العباسي مثلاً، يختلف عن موقفه منه اليوم، ذلك أنّ مُحدّدات الثقافة آنذاك تختلف، كما أنّ الظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية مختلفة كذلك، وقد أفضى ذلك إلى اختلاف موقف العربي منه آنذاك عمّا هو عليه في الألفيّة الثالثة. كما أنّ للمكان أثراً كبيراً في تغيير صورة الآخر، فانتماء فردٍ إلى منطقة الشرق، أو العالم العربي يوجّه موقف الغربي منه، وينبغي للمرء ألاّ يهمل العوامل النفسية والاجتماعية الداخلة في بناء صورة الآخر وتطويرها والتأثير فيها.

وتأسيساً على ما سبق، فإنّ تعريف الآخر من منظور البحث: هو كلّ من لا ينتمي إلى موطن الذات، ولا يحمل هويّتها ولا ينتمي إلى خصائصها اللغويّة، والحضارية، والثقافية، والاجتماعية، والسياسية، وكانت له رؤى أو تطلُّعات تتعارض مع المصلحة العليا للعرب، وبناءً عليه: يمثّل كلٌّ من العثماني، والإنكليزي، والفرنسي، والصهيوني.. بالنسبة إلى الذات آخر، سواء حصل لقاؤه مع الذات في موطنه أم في موطنها.

([1]): ينظر: كامل، فؤاد، الغير في فلسفة سارتر، ص(23) وما بعدها.

([2]): عبود، د.عبده، مفهوم (الآخر) من منظور عربي معاصر، ص(65).

ثانياً: مظاهر مقاومة الآخر:

استنفر حضور الآخر طاقات الذات لمواجهة الخطر الذي يُمثِّله، ولاسيَّما في أطماعه الاستعماريَّة، واستغلال شعوب المنطقة وإخضاعها لهيمنته، وهو ما جعل الشخصيَّة الروائيَّة المُمثِّلة للذات تقاومه، وقد أخذت تلك المقاومة مظاهر عديدة، منها نظرة العداء للآخر، والمقاومة السياسيَّة، والمقاومة المُسلَّحة.

1- نظرة العداء للآخر:

تتحكَّم عواملُ تاريخيَّةٌ وقوميَّةٌ وثقافيَّةٌ في بلورة العلاقة مع الآخر، كما تُسهم تلك العوامل في رسم صورةٍ أو صورٍ له تبدو أحياناً مُتناقضةً، ويرجع ذلك فيما يرجع إلى اللحظة التاريخيَّة، التي تفرض على الذات أن تُحدِّد طبيعة تلك العلاقة وتوجِّه مسارها؛ ذلك أنَّ الموقف التاريخي للشرق في تعامله مع الآخر شهد اضطراباً كبيراً في الرؤى والمواقف، فقد تأثَّر بالغرب إلى درجةٍ جعلته يُهمل التراث ويدين بولائه للغرب، وأحياناً يعود المثقَّفون العرب من الغرب؛ لينتقدوا الشرق ويهاجموه في دعوةٍ إلى التحرُّر واللحاق بالغرب، إلاَّ أنَّ الحروب المُدمِّرة التي أتقنها الغرب أصابتهم بخيبة أملٍ كبيرةٍ؛ إذ أدخلت الرعب إلى قلوبهم وجعلتهم يعيدون النظر في مواقفهم منه، فأخذوا يعودون إلى تراثهم وبيئتهم وأنفسهم يستمدُّون أفكارهم منها، ولكن بعد أن أضحى الغرب جزءاً من ذواتهم، وذاب في شخصيَّاتهم ما تعلموه من الغرب[1].

ولعلَّ العداء ليس مُقتصراً على طرفٍ دون آخر، فالعربي يشعر بعداءٍ إزاء الغرب، الذي أتاه مُستعمراً غازياً طامعاً في السيطرة على مُقدَّراته وثرواته، وتسخيرها لخدمة مصالحه؛ إذ إنَّ الغربي يجاهر أحياناً بعدائه للشرق، فمن ((الأمور المُلفِتة للنظر في علاقة الآخر بالشرق، سياسته الدائمة في تشويه صورة الشرق في الغرب، بهدف نشر العداء للعرب دوليَّاً، ما يؤدِّي إلى إضعافهم وسهولة السيطرة عليهم))[2]. وهذا ما أكَّده الراوي عندما وصف نظرة العداء التي يحسُّ بها (الأخضر) إزاء الفرنسيين، فهو ((يكرههم. مذ كان في باريس كان يرى تعاليمهم وصلفهم ..

([1]): ينظر: المعوش، سالم، صورة الغرب في الرواية العربيَّة، ص(402).

([2]): بطاينة، جودي، شخصية الآخر في الرواية في الأردن، ص(135).

يعرفونك من مستعمراتهم يعاملونك معاملةَ الإذلال والمهانة !! مرات عديدة ثار على مثل تلك المعاملة. خاصّةً معاملة السود أولئك الذين جاؤوا من المستعمرات الإفريقيّة، وكلٌّ منهم يريد أن يحصّل العلم، طبيباً أو مهندساً، فيزيائيّاً أو كيميائيّاً، لكن على أشواك التمييز العنصري))[1]. وجهة النظر التي يُقدّمها الراوي في هذا المقطع السردي لا تقف عند حدود الكراهية التي يشعر بها الأخضر من نظرات الفرنسيين وتصرّفاتهم، بل تتجاوز ذلك؛ لتشير إلى مسألةٍ مُهمّةٍ تتّصل بقضيّة التمييز العنصري لدى الغربيين ضدّ كلّ ما ليس بغربيٍّ، ونظرة العداء تلك ليست وليدةَ مصادفةٍ أو طفرةٍ عابرةٍ، بل جاءت نتيجةَ ممارسات الآخر التي تتّسم بالفوقيّة؛ إذ يغدو العربي في نظر الغربي: دونيّاً، همجيّاً، متخلّفاً.. وهذا ما تطرّق إليه الراوي عبر الحوار الذي يدور بين (شمس) و(القومندان)، الذي أصبح كولونيلاً. يقول مخاطباً إيّاها: ((-ماذا أنتم إذن ؟ لعلّكم تظنّون أنفسكم سادةَ... مثلكم مثلنا ؟ لا .. يا امرأة .. نحن نستعمركم، إذن نحن سادتكم..

-يا إلهي ... كولونيل ... كم تغيّرتَ !! كم تبدّلتَ!! أين كلامك عن الحريّة، المساواة، الإنسانيّة...

-هراءٌ، هراءٌ، كلُّ ذلك هراءٌ))[2]. نظرة التعالي والعداء تظهر في حديث (الكولونيل)؛ إذ تنكّر لكلّ ما كان يرفعه من شعارات العدالة والمساواة، فعندما حاولت (شمس) أن تذكّره بحديثه عن المساواة وحقوق الإنسان، أنكر ذلك وعبّر عن غضبه بقوله (هراءٌ، هراءٌ، كلُّ ذلك هراءٌ)، فالكولونيل ينظر إلى المُستَعمَر نظرةً تتّسم بالعداء والتعالي، ولا غرابة في ذلك؛ إذ تُخلّف القوّة والهيمنة والسيطرة((عند الجماعات العرقيّة القائمة بها إحساساً بالتفوّق والتفرّد والتمايز والاستعلاء والترفّع، بحيث تعمد إلى أن تضع بينها وبين الجماعات العرقيّة الأخرى حدوداً فاصلةً تحول دون عمليّة الاندماج بمعناه الحقيقي. ومع أنّ المغلوب يتحوّل إلى نموذجٍ امتثاليٍّ سعياً وراء تقليد الغالب. إلاّ أنّ الغالب لا يُوفّر شروط اندماجٍ فاعلةٍ))[3].

ويصوّر الراوي موقف العداء الذي يُضمره عزيز للقومندان، وهو ما جعل كلاً منهما على طرفي نقيض؛ إذ عدّ عزيز القومندان شخصاً مختلفاً كلّ الاختلاف، بل رآه رجلاً معادياً[4]،

([1]): ناصيف، عبد الكريم، الطريق إلى الشمس(الجوزاء)، ص(319).

([2]): المصدر السابق نفسه، ص(247).

([3]): إبراهيم، د. عبد الله، المطابقة والاختلاف، المركزيّة الغربيّة، إشكاليّة التكوّن والتمركز حول الذات، ص(231).

([4]):ينظر: ناصيف عبد الكريم، الطريق إلى الشمس (الجوزاء)، ص(141).

وتبدو ملامح الآخر (العدو) في الرواية بوساطة الحكي؛ إذ تسلّط الرواية الضوء على مرحلة الاستعمار الفرنسي، وقد بدا الآخر(الفرنسي) مُتعارضاً مع الذات، فهو في الطرف المضاد لها؛ إذ إنّه يقع خارج انتمائها، وهو ما جعل الذات تُضمر مشاعر الكره له، وقد صوّر الراوي عبر حوار عزيز مع رفاقه العداء الذي يشعر به إزاء الآخر المُعتدي، فقد ((ردَّ عزيز شبه مقاطع، ربما الإنكليز ألأم وأخبث، ولكن هؤلاء الفرنسيين أكثر قسوة وطغياناً، يؤلمك أنّ واحدهم نزقٌ أحمق... لا يحكم تصرُّفاته عقلٌ أو منطقٌ..))[1]. فالذات: مُثقلةٌ بالاضطهاد، والظلم الذي يُمارسه الآخر المُستعمر، وعلى الرغم من أنّ المكان هو موطن الذات، فإنّ الآخر (العدو) يُمارس فيه مختلف أشكال التعالي والقهر على الذات؛ ليظهر الآخر بوصفه طرفاً فاعلاً، وتظهر الذات بوصفها طرفاً مُنفعلاً؛ إذ يقع عليها الظلم، وهذا بدوره ينمّي مشاعر العداء ضدّ الآخر المُستعمر؛ لذا فإنّ أهم دوافع الذات في عدائها للآخر هو سلوكه العدواني إزاءها.

2-المقاومة السياسيّة:

إنّ البحث عن آليات تحافظ على الذات، وتصون الهويّة أمام الأخطار والتحدّيات التي تواجهها أضحى أمراً مُلّحاً، فعلى الرغم من حديث الغرب المُتواصل والمُستمرّ عن حوار الحضارات، والتواصل الحضاري، والشعارات البرّاقة التي يرفعها في هذا الإطار، فإنّ ذلك الحوار محكومٌ بلغته ونظرته، وما تفرضه من استيعاب للحضارات الأخرى، ومن ثَمّ تبديدها.

يحضر كلٌّ من الذات والآخر بوصفهما طرفي ثنائية تنهض على الصراع بين الشرق والغرب، عبر ملامح ثابتة للآخر يرسّخها التعارض القائم بينهما، وقد صوّرت الرواية سعي الشخصيّات المُمثّلة للذات إلى النضال السياسي ضدّ الاحتلال الفرنسي؛ إذ اعتصم أعضاء البرلمان السوري داخل بناء البرلمان مُعبّرين عن رفضهم للانتداب، ومطالبين بخروج المُستعمر الفرنسي من وطنهم، ولكن كونهم أعضاءً في البرلمان لم يشفع لهم؛ إذ قام جنود الاحتلال الفرنسي بتطويق البرلمان، ومن ثَمّ قصفوه، فقتلوا من قتلوا من المُعتصمين، وجرحوا بعضهم، ومن نجا منهم قاموا باعتقاله، وهذا بدوره يعكس وحشيّة المُستعمر وسياسته في كمّ الأفواه التي تنادي بزواله، وعلى

([1]): ناصيف عبد الكريم، الطريق إلى الشمس (الجوزاء)، ص(32).

الرغم من قسوته وبطشه، فإنّ سلوكه لم يُثنِ غيرَ قليل من أبناء الشعب عن رفع الصوت عالياً بوجه المُعتدي، فقد صوّر الراوي أساليب رفض الآخر المُستعمر، بالاعتصامات، والمظاهرات التي جابت الشوارع مُنددةً بالاستعمار، ولم تقتصر المظاهرات على الرجال، بل كانت المرأة حاضرةً بقوّة فيها؛ إذ كانت نازك العابد تقود مظاهرةً، وتصرخ بأعلى صوتها، فردّدت ((مئات الأفواه في الحال:" يسقط الانتداب .... "يسقط الاستعمار"... "تسقط فرنسا". وخلال ثوانٍ بدأت المظاهرات تشقّ طريقها في شوارع فغرت أفواهها تعجُّباً من مظاهرةٍ لم تشهدها من قبل))[1]. جاءت المظاهرات بوصفها أحد أهم مظاهر المقاومة السياسيّة، وعلى الرغم من وحشيّة المحتلّ الفرنسي ومُمارساته ضد كلّ أشكال التعبير عن رفضه، فإنّ الاحتجاجات والمظاهرات لم تتوقّف، بل إنّها أصبحت رسالة احتجاجٍ واضحة للفرنسيين، وردّة فعلٍ تعبّر عن رأي الشعب السوري وموقفه من الاحتلال. وإذا كانت نازك العابد تُمثّل المرأة المُثقّفة والمُتحرّرة، التي تستطيع أن تُعبّر عن رأيها من دون أن تشعر بأنّها مُقيّدة، فإنّ (**شمس**) ابنة أحد شيوخ قبائل البدو، لم تستطع أن تعبّر عن رفضها ومقاومتها للاحتلال الفرنسي بصورةٍ مُعلنةٍ؛ نظراً لتقاليد القبيلة التي تُقيّد المرأة في ذلك؛ لذ أوجد الراوي مخرجاً لها من الحرج، فقد كانت تتقنّع، وتقوم بمقاومة الآخر المُعتدي من دون أن تكشف عن هويّتها، وقد كانت تحاور من تراهم وتحثّهم على رفض الاستعمار[2].

وقد أشار الراوي إلى دور المُثقّف في توعية الجماهير، ولتحقيق ذلك عليه أن يتخلّص من حالة النخبويّة التي يعيشها، وأن يكون بين الناس؛ ليقوم بدوره على أكمل وجه، وهذا ما جاء على لسان (**الأستاذ**) في جوابه عن سؤال (عزيز) حول الاستعمار، يقول: ((الاستعمار.. حذارِ الاستعمار.. هو بلاؤنا الوحيد، خلاصنا بالخلاص منه، كرامتنا بإخراجه من أرضنا، لا أمل من مستعمرٍ، هو عدوٌ فلا تقرب العدو.. ولا تقم معه أواصر أو كنت كمن وضع الحيّة في عبّه، لا يعلم متى تلدغه))[3]. نظراً لتنكيل المُحتل بالمناضلين وملاحقتهم لجأ المناضلون إلى تحذير الناس من الاستعمار في أي مكان يجتمعون فيه، ويخاطبون مختلف شرائح المجتمع (الفلاح، والعامل، الجاهل، والمثقّف، والرجل، والمرأة...)، فعدم القدرة على المجاهرة بالرأي جعلت من اللقاءات

([1]): ناصيف، عبد الكريم، الطريق إلى الشمس(الجوزاء)، ص(39).

([2]): ينظر: المصدر السابق نفسه، ص(45-68).

([3]): المصدر السابق نفسه، ص(186).

العابرة منابر سياسيّة لها دورٌ كبيرٌ في توعية الجماهير[1]؛ لذا أخذ (الأستاذ) على عاتقه تحذير الناس الذين يحيطون به من الخطر الذي يمثّله اليهود؛ إذ يقول مخاطباً جموعاً من الناس: ((المستعمرون كذّابون مخادعون ..."كان يقول لزوّاره مُنبّهاً مُحذّراً" يحدّثونكم عن الخير وهم لا يريدون بكم إلاّ الشرّ... يتشدّقون عن المصلحة المشتركة والمنفعة المتبادلة، وهم لا يسعون إلاّ لمصلحتهم، لا يفكّرون إلاّ بمنفعتهم))[2]. يقوم الأستاذ بمُهمة عظيمة تتّصل بالتحذير من الوقوع في خدع المُستعمر وأحابيله، فحديثه المُستمر عن الحوار والمصلحة المُشتركة ليس إلاّ مظهراً من مظاهر تضليل الناس؛ ليستكينوا له ويخضعوا لإرادته؛ لذا كان ينكّل بكلّ من يعارض وجوده على أرض الوطن، وقد مارس سياسة وحشية على الذات؛ إذ اتّبع سياسة التجويع لإرغام الناس على الاستسلام له والخضوع لإرادته، ولكنّ ذلك السلوك كان حافزاً مهمّاً من حوافز السرد الحكائي؛ إذ جعل شرائح الشعب المختلفة تؤمن بأنّ المقاومة هي السبيل الوحيد لتحقيق الحرية للوطن، والكرامة لأبناء الشعب؛ لأنّ الاستسلام للآخر المُستعمر لن يُغيّر من الواقع شيئاً، بل إنّه يجعله يتمادى في ممارساته الوحشيّة وغطرسته، وإذا كانت المقاومة المُسلّحة غير مُتاحةٍ للشخصيّات الروائيّة لأنّها مُلاحقة ومُطاردة، فإنّ النضال السياسي لا يُستهانُ به؛ إذ إنّ له أثراً كبيراً في توعية الجماهير؛ لذا سعى المُستعمر إلى نشر ثقافةٍ ((استعماريّةٍ تعمل على إضعاف الروح المعنويّة في الشعوب التي نزلت بها))[3]؛ وهذا يشير إلى أنّ الآخر (الغربي) على وجه التحديد، يسعى إلى طمس هويّة الذات؛ ليجعل منها مجرّد خاضعٍ أو تابعٍ، إن لم يكن على المستوى السياسي، فعلى المستوى الفكري والثقافي على أقل تقدير، وهو ما دفع بـــ صبري إلى أن يرفع صوته عالياً مُحذّراً من خطر الاستعمار الذي يُهدّد البلاد، ولكنّه يدفع ثمن ذلك الاعتقال والتنكيل، فقد قال مُقاطعاً عزيزاً:((تعلم.. بالخديعة استعمروا العالم.. بالتآمر والباطل هيمنوا على بحار الأرض.. وقاراتها.. يضربون هذا الشعب بذاك، هذه الطائفة بتلك ليقطفوا هم الثمار..))[4]. وإذا كان (الأستاذ) يمثّل الإنسان السوري المُثقّف الذي يضطلع بمهمّة تحذير الناس الذين يحيطون به من

([1]): ينظر: ناصيف، عبد الكريم، الطريق إلى الشمس(الجوزاء)، ص(69– 77).

([2]): المصدر السابق نفسه، ص(190).

([3]): الفيومي، محمد إبراهيم، الاستشراق رسالة استعمار، تطور الصراع الغربي مع الإسلام، ص(134).

([4]): ناصيف، عبد الكريم، الطريق إلى الشمس(الجوزاء)، ص(32).

خطر المُستعمر، فإنّ (البطحيش) يمثّل الإنسان غير المثقف، والبسيط، ولكنّه يبدو واعياً لضرورة مقاومة الاحتلال بشتى الوسائل؛ لأنّ محبة الوطن والدفاع عنه لا تُدرَّس ولا تحتاج إلى ثقافةٍ كما يرى، فهي ينبغي أن تسري بدم الإنسان؛ لذا يشير إلى قضيّة تآمُر البريطانيين مع اليهود؛ ليجعلوا من فلسطين أرضهم المزعومة. ويقدّم في حواره مع عزيز وجهة نظره حول ذلك بقوله: ((الانتداب البريطاني على فلسطين جاء لغايةٍ واحدةٍ: تقديم فلسطين على طبقٍ من فضّةٍ لأبناء يعقوب.. بريطانيا وضعت خططاً سريّةً مُحكَمةً و حُكّامُها اليهود ينفّذون تلك الخطّة: اضطهاد اليهود في أوروبا.. طرد هتلر لهم من ألمانيا إنّما كان لهدفٍ وحيدٍ : دفعهم للهجرة إلى فلسطين.. ولكي يحقّقوا ذلك بيسرٍ وسهولةٍ يزرعون في أذهانهم أنّ الربّ يهوه يفتح لهم الباب على مصراعيه، لتحقيق حلمهم بالعودة إلى أرض الميعاد.. أليسوا شعباً بلا أرض؟ إذن، ليذهبوا إلى أرضٍ بلا شعبٍ))[1]. على الرغم من أنّ البطحيش غير مثقفٍ، فإنّه يبدو مدركاً للمؤامرة التي تحيكها بريطانيا ضد الشعب الفلسطيني؛ إذ رأى أنّها تسعى إلى منح اليهود وطناً قومياً على أرض فلسطين. وانشغال البطحيش بمقاومة المحتل الفرنسي لم يُنسه قضيّة الآخر البريطاني وتحالفه مع الآخر اليهودي لتنفيذ مُخطّطاتهم في اقتلاع الفلسطينيين من أرضهم ومنحها للإسرائيليين.

ومهما يكن من أمرٍ، فقد صوّرت الرواية أشكال المقاومة السياسية ضد الاستعمار؛ إذ أشارت إلى الاعتصامات والمظاهرات المنددّة به، والتي شاركت فيها المرأة، بل إنها أخذت زمام المبادرة والقيادة، وهو ما تجلّى في شخصيّة المناضلة نازك العابد، وأظهرت الرواية كذلك دور اللقاءات والحوارات بين شرائح المجتمع المختلفة في توعية الجماهير وحثّهم على مقاومة الاحتلال.

([1]): ناصيف، عبد الكريم، الطريق إلى الشمس(الجوزاء)، ص (103).

3-المقاومة المُسلّحة:

لم تظهر ثنائيّة الذات والآخر في الرواية بصورةٍ مباشرةٍ على مستوى البنية السطحيّة، بل ظهرت بصورةٍ ضمنيّةٍ على مستوى البنية العميقة؛ لتعكس رؤية الكاتب وموقفه من الآخر المُستعمر؛ لذا استأثرت مظاهر مقاومة الآخر بأشكالها المختلفة بمساحاتٍ واسعةٍ من السرد، وقد مارس الآخر على الذات مختلف أشكال الغطرسة، والظلم، والاعتداء، والتعذيب، والقهر، وحاول فرض سيطرته وهيمنته بقوّة السلاح، وهو ما جعل معظم الشخصيات الروائية المُمثّلة للذات تقاومه بكلّ ما أُوتيت من قوّة؛ ليظهر الكفاح المُسلّح بوصفه خياراً وحيداً أمام الذات لطرد الاحتلال وتحقيق الاستقلال، فالمُستعمر الذي فرض سلطته بالقوّة لن يخرج من أرض الوطن إلاّ بالقوّة؛ لذا أصبح (البطحيش) على يقين بأنّ ((الحريّة تؤخذ ولا تُعطى... والاستقلال لا يُنال إلاّ على جسرٍ من التضحيات ...))[1]. يأتي هذا المقطع السردي في صيغة القول(العرض) على لسان البطحيش، وتأتي هذه الصيغة بوصفها ردّة فعلٍ على الحدث المُتمثّل بسعي الفرنسيين إلى الاستمرار في احتلال سورية، وعلى الرغم من أنّ الراوي في هذه الرواية راوٍ عالمٌ بدواخل شخصيّاته وأفكارها وردود أفعالها وأحاسيسها، فإنّه أحياناً يترك لها المجال لتعبّر عن مواقفها، كما هو الحال مع موقف البطحيش من الاستعمار؛ إذ يرى أنّ المقاومة المُسلّحة هي الطريق الوحيدة لنيل الحريّة؛ لأنّ احتلال الشعوب الأخرى وزرع الكيانات والمستوطنات فيها، ليس سلوكاً عابراً في الحضارة الغربيّة، بقدر ما هو مدعومٌ ومفروضٌ من قبل كياناتٍ وإيديولوجياتٍ مهيبةٍ تتضمّن أفكاراً مفادها أنّ بعض الشعوب والبلدان ترغب وتتضرّع من أجل أن تخضع للسيطرة، فضلاً عن أنّ مفاهيم مثل (الثقافة والإمبرياليّة) لتزخر بتصوُّراتٍ من مثل: أمم خاضعة، وسلطة، وتوسُّع، ودونيّة ....[2]

وقد عانى العرب من تآمر الدول الغربيّة والقوى العظمى عليهم؛ ليزرعوا الكيان الصهيوني في فلسطين، وما تطلّبه ذلك المشروع من عمليّات قتلٍ ومجازر وحشيّةٍ وتهجيرٍ جماعيٍّ قلّما شهدها التاريخ، فقد قامت الدولة الصهيونيّة على جماجم الفلسطينيين، وهذا ما عبّر عنه الراوي حين وصف موقف (**الأستاذ**) _ في حواره مع (شمس)_ من تآمر الغرب وتعاونهم

([1]): ناصيف، عبد الكريم، الطريق إلى الشمس(الجوزاء)، ص(104).

([2]): ينظر: سعيد، إدوارد، الثقافة والإمبريالية، ص(80).

مع اليهود لتحقيق وعد بلفور:((-تدخّل الأستاذ بكثيرٍ من القهر، لكنّ اليهود أشرارٌ، يحيلون فلسطين كلّها إلى جحيمٍ ونصب أعينهم هدفٌ واحدٌ..

- أيّ هدفٍ؟ سألت شمس وكأنّها نسيت الغاية الأساسيّة من وعد بلفور.

- طَردُ العرب .. كلّ العرب.. فتبقى فلسطين كما يزعمون: أرضاً بلا شعب لشعبٍ بلا أرض...))[1]. يبدو الآخر المُستعمِر من حديث (الأستاذ) متوحّشاً متربّصاً بالذات، بل إنّه يسعى من منظوره إلى القضاء على العرب وإحلال اليهود مكانهم؛ لتغدو عبارة الأستاذ: (أرضٌ بلا شعبٍ لشعبٍ بلا أرضٍ)، بؤرةً دلاليّةً تحمل في مضمونها غير قليلٍ من الإشارات والدلالات التي تختزل الواقع وتعبّر عنه. ويظهر حافز الدفاع عن الوطن بوصفه المُحرّك لحلقاتٍ سرديةٍ متتابعةٍ؛ إذ جعل ذلك الحافز معظم الشخصيّات الروائيّة المُمثّلة للذات تنتقم لوطنها، وعلى الرغم من قصف الاحتلال الفرنسي المُستمر للأحياء والمدن المختلفة؛ ليبثّ الرعب في قلوب الناس، فضلاً عن انتهاجه سياسة الحصار والتجويع لإخضاع الذات لإرادته، فإنّ سلوكه ذاك استنفر طاقات الذات المختلفة لمواجهته؛ إذ اشتعلت المدن السورية ضدّ الاحتلال الفرنسي في مختلف المدن، فقد قامت ثوراتٌ عديدةٌ على فرنسا((حين دخلت بلادنا.. في جبال اللاذقيّة، في جبل الأربعين.. في دير الزور، في حماة، هنا في حوران، في جبل العرب.. الغوطة، دمشق كلّها كانت ثوراتٍ ترفض الاستعمار والانتداب.. تنادي بالحريّة. بالاستقلال.. لكن كلها بطشت بها فرنسا، ضربتها بقسوةٍ وجبروت.. كم دمّرت من أحياء!! حرقت من قرى، قتلت من أبرياء..))[2]، فالذات مسكونة برغبة الانتقام من الآخر المُعتدي؛ لذا فإنّ السوريين بمختلف شرائحهم قاوموا الاحتلال الفرنسي بما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ومهما حاول الآخر الغربي أن يظهر بمظهر من يدافع عن حقوق الإنسان، والمساواة، والديمقراطيّة، والعدالة، فإنّ هذه الشعارات التي يرفعها، وتلك الأقنعة التي يبدّلها لا تغيّر من الحقيقة شيئاً، وهذا ما أكّده (**عزيز**)؛ إذ رأى في القومندان _الذي يمثّل الغرب _ عدوّاً لا يمكن إلاّ أن يقاومه ابن الشرق، فـــ((الشرق والغرب... هي ذي المشكلة دائماً. بدأ عزيز وهو يرى في القومندان مرةً ثانيةً رجلاً جاء من الغرب لاستعمار الشرق، رجلاً مختلفاً كلّ الاختلاف، بل

([1]): ناصيف، عبد الكريم، الطريق إلى الشمس(الجوزاء)، ص(332).

([2]): المصدر السابق نفسه، ص(9).

خصماً معادياً))[1]، ولا يقتصر الأمر على اغتصاب الأرض، والتحكُّم بمُقدّرات الشعوب وإخضاعها لإرادة المُستعمِر، بل يتجاوزه بكثيرٍ؛ إذ إنّ القوى الاستعماريّة وفي سبيل تحقيق مُخطّطاتها تفعل كلّ ما من شأنه أن يخدم مصالحها ويثبّت أركانها على الأرض؛ لتغدو مظاهر القتل والوحشيّة أهمّ الصفات التي يتّسم بها الآخر، وقد وصف الراوي – من منظور **(صبري)** – ردّ الفرنسيين الوحشي على ما أبداه الثوار من مقاومةٍ مُسلّحةٍ عنيدةٍ، فهو ((يذكر ذلك، يذكر القسوة والظلم اللذين عوملت بهما دمشق والغوطة أيّام الثورة، يذكر البيوت التي قُصفت، قذائف المدفعيّة وهي تصب بحوامل المطر على حيّه، الميدان، حي الشاغور، باب الجابية، المدينة القديمة كلها[*]، وكأنّهم يريدون مسحها عن وجه الأرض))[2]، ولئن تشدّق الغرب بشعاراتٍ من مثل: المدنيّة، والحضارة، والديمقراطيّة، فإنّه في سلوكه الاستعماري ينسف كلّ ما ينادي به؛ لأنّ تلك الشعارات تتناقض مع مصالحه، التي لا تتحقّق إلاّ بإخضاع بقيّة الشعوب والأمم لسلطته السياسيّة، والاقتصاديّة، والثقافيّة؛ لتتمّ له السيطرة المطلقة على الموارد الطبيعيّة والمنافذ التجاريّة، ونهب خيرات الشعوب ومقدّراتها، ممّا يساعده على فرض سلطته على الأرض بشتّى الوسائل ذلك أنّ ((تركيبة الحضارة الغربيّة تقوم على النهب، والقهر، والعنصريّة، ورخاء ورفاهية أهل الحضارة الغربيّة، جاء من نهب ثروات الشعوب الأخرى واسترقاق أهلها، ولكي تستمرّ هذه الرفاهية، لا بدّ أن يستمرّ النهب والقهر، فهل أهل الحضارة الغربيّة مستعدُّون للتوقّف عن النهب والقهر والعنصريّة؟ هل هم مُستعدُّون للتخلّي عن رفاهيّتهم القائمة على ثروات الآخرين من أجل التعاون معنا أو مع غيرنا؟))[3]. هذه الأفعال لا تحتاج إلى كثيرٍ من الحجج والبراهين للتدليل على بشاعتها، طالما أنّ الآخر يصمُّ أذنيه عن صوت الحقيقة، ولا يرى إلاّ ما تمليه عليه مصالحه، ويشي الحوار بين**(عزيز)** و**(القومندان)** باستهجان عزيز لموقف الفرنسيين، يقول مخاطباً إيّاه:((معقول ؟ ... أهل المدنيّة والحضارة يمنعون أبسط حقوق المدنيّة والحضارة ؟

([1]): ناصيف، عبد الكريم، الطريق إلى الشمس(الجوزاء)، ص(141).

([*]): تتكرر هذه الصورة في غير موضع من الرواية، ينظر على سبيل المثال لا الحصر الصفحات: (50، 102، 185...).

([2]): المصدر السابق نفسه، ص(33).

([3]): مورو، محمد، الإسلام وأمريكا (حوار أم مواجهة)، ص(79).

-اسمع .. عزيز، نحن في حالة حربٍ، وليس في الحرب مدنيّةً أو حضارةً...

- ها أنتم تنزعون القناع عن وجوهكم .. فتبدون على حقيقتكم؟

-ماذا تقصد؟ همجٌ نحن؟ وحوشٌ؟

-ماذا تدعون إذن، ضرب الناس بالسياط ؟ تفريقهم بالحراب ؟

-ألم يُضرَب أهلنا بالسياط في باريس، ألم يُفرّقوا بالحراب ؟ ابنك الأخضر ماذا تعرف عنه؟ أهلي أنفسهم ماذا حلّ بهم ؟

ردّ القومندان وقد تقلّصت سيماء وجهه كمداً وحنقاً

-إذن... أنتم تنتقمون من ألمانيا فينا ؟ تفرغون حقدكم علينا ؟))[1]. حاول عزيز أن يذكّر القومندان بما تدّعيه باريس من حضارةٍ، ومدنيّةٍ، وحقوق الإنسان، يريد أن يذكّره بالازدواجيّة التي تنتهجها فرنسا إزاء سورية، فباريس لا ترضى أن تُضرَب بقذائف (هتلر) وتحاول إيقافه بشتّى الوسائل، وهي تمارس سلوك هتلر نفسه في سورية، ولعلّ عبارة (عزيز) التي ختم بها حواره: (أنتم تنتقمون من ألمانيا فينا) تحمل غير قليلٍ من الدلالة والإيحاء، فهي تشير إلى أنّ المُستعمِر لا مبدأ له، وأنّ خلف الشعارات البرّاقة وجوهاً بشعةً وذئاباً متربّصةً تحاول النيل منّا بشتّى الوسائل، ومهما ادّعى الآخر المساواة وحقوق الإنسان، فإنّ صراعه مع الذات صراعٌ مصيري[2]، فالمعركة التي تخوضها الشخصيّات المُمثّلة للذات مع الآخر معركة وجودٍ، لا تنتهي إلاّ بانتصار طرفٍ على الآخر، وهو ما دفع بـــ(عزيز) وغيره من الشخصيّات إلى أن يُقدّموا التضحيات الجسيمة في سبيل الخلاص من الاستعمار، فقد شكّل الاستعمار تحدّياً كبيراً للشخصيات الروائيّة؛ إذ أثّر في وعيها وفي نفسيّتها وتكوينها؛ لتغدوَ أمام لحظةٍ حاسمةٍ لا مجال للتردّد فيها، فـــ ((لا توجد علاقةٌ بالآخر إلاّ على قاعدة غالبٍ ومغلوبٍ، وبدون هذه العلاقة يضمحل الآخر

([1]): ناصيف، عبد الكريم، الطريق إلى الشمس(الجوزاء)، ص(33).

([2]): ينظر شرشار، عبد القادر، خصائص الخطاب الأدبي في رواية الصراع العربي-الإسرائيلي، ص(10).

ويصبح عدماً، وإلاّ حرم نفسه من مادّة غلبته))[1]، ولعلّ الإرث الاستعماري للحضارة الغربيّة رسّخ قناعةً عميقةً لدى العرب بأنّ المقاومة والكفاح المُسلّح ضدّ الغزاة، هو الكفيل بتحقيق الاستقلال ونيل الحريّة؛ لذا قدّم الثوّار أرواحهم رخيصةً للدفاع عن الوطن، وجنّدوا طاقاتهم في سبيل الوقوف بوجه الاستعمار.

خاتمة

عاينت الرواية مظاهر مقاومة الآخر بأشكالها المختلفة، فقد صوّرت نظرة العداء التي تضمرها الذات للآخر المُعتدي، وقد جاءت تلك النظرة بوصفها ردة فعلٍ طبيعية على وحشيّة المُستعمر وغطرسته، وعبرت الرواية عن أشكال المقاومة السياسية، والتي تمثّلت بالمظاهرات والاحتجاجات العارمة، التي أرسلت رسائل قوية للمحتل بأنّ هذا الشعب لن يخضع له. وأظهرت الرواية المدروسة أهميّة المقاومة المُسلّحة بوصفها الطريق الأمثل للخلاص من المُستعمر، وقد بدا ذلك في سلوك الشخصيّات المُمثّلة للذات؛ إذ عزمت على الكفاح المُسلّح لنيل الحريّة والاستقلال، لذا انتفضت معظم المدن والبلدات السورية ضدّ الاستعمار، وعلى الرغم من الإمكانات الضئيلة المتوافرة لدى شرائح المجتمع السوري المختلفة، فإنّهم قدّموا تضحياتٍ كبيرةً لطرد الغزاة المُعتدين، وقد رأوا في الكفاح المُسلح طريقاً وحيدةً لطرد المُستعمر.

([1]): مجموعة مؤلفين، صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص(22).

المصادر والمراجع:

1-**إبراهيم**، د.عبد الله، 1997_ المطابقة والاختلاف، المركزية الغربية المركز الثقافي العربـــي، الدر البيضاء-بيروت.

2-**البطاينة**، جودي،2004- شخصية الآخر في الرواية في الأردن، الوراق للطباعة والنشر، عمان.

3- **الذويخ**، د.سعد فهد، 2009_ صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي، عالم الكتب الحديث، إربد.

4- **الرويلي**، د.ميجان وسعد البازعي،2002 _ دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- بيروت.

5- **سفر**، تامر، 2001_ **الذات والهوية في سيكولوجية الشخصية**. مجلة المعرفة، وزارة الثقافة السورية، العدد(455)، السنة(40)، دمشق.

6- **سعيد** إدوارد،2004_ الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت.

7- **سليمان**، حسين، 1999_ مضمرات النص والخطاب، دراسة في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

8- **الشدودي**، علي، 2008_ **الآخر في الرواية السعودية، طرق للرؤية**، مجلة الراوي، عدد(19)، جدة.

9- **شرشار**، د.عبد القادر،2005 _ خصائص الخطاب الأدبي في رواية الصراع العربي - الإسرائيلي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

10- **صليبا**، جميل، 1982_ المعجم الفلسفي، دار الكتاب_ مكتبة المدرسة، بيروت.

11- **عبود**، د.عبده،_2011_ **مفهوم (الآخر) من منظور عربي معاصر**. مجلة الموقف الأدبي، عدد(477)، دمشق.

12- **الفيومي** محمد إبراهيم،1993 -الاستشراق رسالة استعمار، تطور الصراع الغربي مع الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة.

13-**كامل**، فؤاد، د.ت_ الغير في فلسفة سارتر، دار المعارف، القاهرة.

14- **مجموعة مؤلفين**،1999- صورة الآخر، العربي ناظراً ومنظوراً إليه، تحرير الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت.

15-**المعوش**، سالم، 1998_ صورة الغرب في الرواية العربية، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت.

16-**مورو**، محمد، د.ت._ الإسلام وأمريكا، حوار أم مواجهة، دار الروضة للنشر والتوزيع، الدبس للنشر، القاهرة.

17- **ناصيف** عبدا لكريم،2000- الطريق إلى الشمس(الجوزاء)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

18-**وهبة**، مجدي، وكامل المهندس، 1984_ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت.

The resistance against the other in the(Attareeq Ila Ashames, Aljozaa) by Abed Alkareem Naseef

Abstract

This search is about the resistance of the other in the (Attareeq Ila Ashames, Aljozaa) by Abed Alkareem Naseef. Especially intellectual Res. Which had large in illuminating the public, and warning them of the danger that is the colonial west and Globalization imposes the difficulties which makes it necessary to face the challenges to identity.

Keyword

-The self

-The other

- political

- intellectual

- armed